Documents pour l'histoire du français langue étrangère et seconde, décembre 2001, no 27.
L'impérialisme linguistique de Pierre Foncin en Méditerranée
NORIYUKI NISHIYAMA.
Université de Niigata, Japon
P. 35-48

الامبريالية اللغوية لبيير فونسان في المتوسط

بقلم : نوريوكي نيشياما
ترجمة وتعريب : د. محمد عثمان بن بركة
أستاذ مشارك بكلية اللغات / جامعة طرابلس

ملخص البحث : لقد لعب بيير فونسان (PierreFoncin) دورا رئيسا في سياسة نشر اللغة الفرنسية بالمستعمرات الفرنسية وفي الخارج مع بداية الجمهورية الثالثة بواسطة إنشاء الرابطة الفرنسية (l'Alliance française). وتتميز سياسته اللغوية بالامبريالية اللغوية تجاه البربر تحديدا.

النص الكامل :

المقدمة

1. أصبحت الامبريالية اللغوية في الوقت نفسه رهانا لغويا وتعليميا ، وذلك بفضل الدراسة التي قدمها فيليبسون Philippson) حول إشكالية نشر اللغة الانجليزية ، والتي عرَّفها بأنها: "نظرية تختص بتحليل العلاقات القائمة بين ثقافة مسيطرة وثقافة مسيطر عليها (بكسر الطاء الاولى وفتح الطاء الثانية)، وعلى وجه الخصوص الطريقة التي تفوُّقِ بها تعلُّم اللغة الانجليزية (كلغة ثانية)" (فيليبسون 1992 : 15).وإذا كانت هذه النظرية تهتم بعلاقات

القوة بين الثقافات ، فلا تستثنى الفرنسية من ذلك انطلاقا من دورها الموجِّه لسياسة الدمج اللغوية في الفترة الاستعمارية.

2. سنحاول في هذه الدراسة أن نبيّنَ إمبرياليةَ بيير فونسان(P. Foncin) (1841–1916) ، وهو أولُ أمينٍ لرابطة اللغة الفرنسية(L'Alliance Française) عام (1883–1897)(واختصارها : AF)، وسادسُ رئيسٍ لها عام (1899–1914)، وهو بذلك المُؤَدْلِجُ لسياسة فرنسا اللغوية بالخارج إبَّان الجمهورية الثالثة. إن هدفنا من هذه الدراسة هو إظهار إيديولوجيته اللغوية في خدمة سياسة نشر الفرنسية في حوض البحر الابيض المتوسط ، وهو إقليم له الاولوية في عمل الرابطة الفرنسية كما ورد لدى فونسان (1). ولقد تشكلت ايديولوجيته الاستعمارية تحت مسمى : { الغزو الاخلاقي } ، وسنبحث ذلك في الجزائر على وجه الخصوص باعتبارها المختبرَ الذي تم فيه تطبيقُ { الغزو الاخلاقي }

1. ما هي الامبريالية اللغوية ؟

3. :نعتمد في تحليلنا لقيم الامبريالية اللغوية هنا ، على ملاحظات لغوي ياباني تاناكا كاتسوهيكو (Tanaka Katsuhiko) الذي وصف هذه الايديولوجية ، استنادا على مِيِّيه : (Meillet) **بإنَّها هجرُ اللغةِ الام لاستبدالها بلغة أخرى (تاناكا 2000 : 47). وتتميزُ هذه الايديولوجية بوجهاتِ نظرٍ ثلاث :

4. أولا ، ليست كلُّ اللغات ذات قيمة واحدة ؛ فالبعضُ منها همجيةٌ ، ومتأخرةٌ من الناحية الحضارية ، والبعض الاخر، لغات متقدمة وحضارية ، وهذا الافتراض مستلهم من نظرية التطور البيولوجي والاجتماعي السائدة في القرن التاسع عشر ومتأثر ضمنيا بها. ومن البداهة أن العلماء الغربيين هم الذين اخترعوا هذا الترتيبَ اللغويَّ القائمَ على هذا النحو ، بحيث إن اللغاتِ

الاوروبيةَ التي تتميز بالاعراب ، وهو مظهر يدل في نظرهم على الامتياز اللغوي، تعتبرُ الاكثرَ تطوراً على المستوى العالمي. (2)

5. إن ما يغذي الامبريالية اللغوية هي كليات الكلام أيضا.(3) وتستلزم هذه الفرضية اللغوية أنه باستطاعتنا أن نعبِّر عن فكرنا بواسطة أية لغة في العالم. وتتيح البنية العميقة المشتركة للغات التعبير عن فكرنا بوسيلة لغة أخرى أكثر انتشارا وأكثر تكاملا، ضد صالح لغتنا الأم، وهي محصورة أحيانا على المستويين اللغوي والجغرافي كذلك. فقد يحدث، على سبيل المثال، أن لغة ما غير مزودة تزويدا كافيا بمفردات تقنية مقارنة بلغات أخرى، وهو ما يلاحظ في لغات محلية كثيرة.
6. ولكنَّ الحجةَ الاكثرَ إقناعا تدور حول عقيدة لغوية واجتماعو–ثقافية : أي يستطيع المتكلمون هجر لغتهم الام إراديا لحساب لغة أخرى ، دون اللجوء إلى معايير قسرية. و يحدث هذا الاختيار اللغوي بسهولة على شرط فصل اللغة عن الامة ، وهو ما يشير إليه [ميِّيه] بصدد الوضع اللغوي في الامبراطورية العثمانية. ويذكِّر بهجر اليونانيين والارمن استعمال لغتهم الام لصالح اللغة التركية ؛ في حين أنهم لا زالوا يشعرون بأنهم يونانيون أو أرمن (ميِّيه 1928 : 78). وهكذا يعطي التاريخ أمثلة كثيرة على أمم هجرت استعمال لغتها الام ، مع حفظها كليا لوعي وطني قوي .ومن الواجب أن نقبل مع ميِّيه بأن { أية أمة لا ترتبط بأي سند مادي بما في ذلك اللغة. فالانتماء لأية أمة هو قضية شعور وإرادة }(المرجع نفسه)
7. وهذا لا يمنعنا من التساؤل عن مستقبل اللغات في العالم من حيث السياسة اللغوية. فإذا قبلت أمة ما استبدال لغتها الام بلغة أخرى بسهولة ، وذلك لأسباب المرونة على سبيل المثال ، فقد يحدث أن الامبريالية اللغوية القائمة تتيح التمييز بين الشعوب القادرة على إتقان { لغة الامبراطورية } عن غيرها

من الشعوب العاجزة عن ذلك وهو ما يذكرنا في هذا الصدد بالوضع اللغوي تحت السيطرة الاستعمارية.

2. سياسة نشر اللغة الفرنسية لدى فونسان :

{ الغزو الاخلاقي }

8. لم يطلق فونسانتعبير { الامبريالية اللغوية } ، ولكنه تحدث عن {الغزو الاخلاقي } الذي جسده في الحقيقة بتطبيق سياسة نشر الفرنسية لدى الاهالي. أما فيما يتعلق { بالغزو الاخلاقي }فهو ليس من اختراع فونسان نفسه ، وليس بإمكاننا حاليا تحديد أصل هذا المفهوم(4). ويبدو ظاهريا ، مع ذلك ، أن هاردي (Hardi) مفتش التعليم في غرب أفريقيا الفرنسية (A.O.F.)هو من كان وراء إشهاره وذلك بنشر كتابه : الغزو الاخلاقي : التعليم في غرب أفريقيا الفرنسية 1917.
9. من المحتمل جدا أن يكون هذا التعبير قد استعمل في الاوساط السياسية بعد الغزو العسكري. إن الجزائر المدمَجَة كأحد أقاليم الجمهورية ، بعد 1871 (هزيمة مقراني في منطقة القبائل) ، لم تعد في أيدي العسكر وهي تترك " المجال لأصحاب المردودية الاستعمارية " (ستورا ، Stora 1991 23) ، وهم المستعمرون الذين سيطروا ، منذ ذلك الحين ، على البلاد. ويؤكد فونسان على الانتقال من الغزو العسكري إلى الغزو الاخلاقي : " لقد انتهينا من الغزو المادي لهذا البلد الجميل ، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ويبقى إنجاز الغزو الاخلاقي " (انظر بروييزيير، Bruézière 1983 : 40).
10. إن { الغزو الأخلاقي } بالمعنى الواسع للكلمة ، يكمن في ممارسة نفوذ أخلاقي وفكري وديني على الافراد بواسطة المبشرين ، من ناحية ، ونفوذ لغوي وثقافي بواسطة تعليم اللغة من ناحية أخرى. ويحدد فونسان وهو من يقرر السياسة اللغوية، أنها تهدف إلى تعليم الاهالي اللغة الفرنسية لتحويلهم

إلى " فرنسيي القلب أو الشعور " : " فلا قيمة للغزو المادي بدون الغزو الاخلاقي ، وأن من هم تحت حمايتنا من الاهالي لا يمكن لهم أن يكونوا فرنسيي القلب أو الشعور ، إذا لم يتعلموا الحديث بالفرنسية " (BAF 29 bis 1989 : 13).

11. إذا كانت سياسة الدمج ترمي إلى الفرنسة بواسطة اللغة الفرنسية ، فإن فونسان لا يقصد دمج الاهالي مع الفرنسيين كليا؛ ولكن بإمكانهم أن يصيروا { فرنسيي القلب } ؛ وهو ما لا يدخل أبداً في الشكل الاداري والقانوني . والمقدرة على التحدث بالفرنسية وسيلة مفضلة لفرنسة السكان.
12. تعليم كل الاهالي استعمال لغتنا . الاساس أنيفهموا الفرنسية ، ويتحدثوا بها. وعليهم أنْ يَقْرَأُوا بالفرنسية وْيَكْتُبُوا بها ، هذا مفيد ، ولكن بدرجة متدنِيةّ .ولْيَبْعَثُوا بتلاميذهم إلى مدارسنا ومعاهدنا ، وهذا نوع من الترف تقريبا(فونسان 1884 : 15).
13. المقدرة الشفوية هي المهمة أولا بالنسبة لفونسان ، في حين وضعت المقدرة الكتابية (التعبير والاستيعاب)، منذ البداية ، بعيدا عن متناول الاهالي. وتبين هذه الاولوية المعطاة للمقدرة الشفوية مدى سياسة الدمج : لا يحتاج الاهالي إلى إتقان اللغة كما يفعل فرنسيو العاصمة الاوروبية ، فالفرنسية البسيطة تكفيهم لخدمة أسيادهم الفرنسيين.
14. يستخدم { الغزو الاخلاق } في تمجيد الوطنية الجمهورية أثناء مرحلة الازمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولقد أذلت الهزيمة النكراء عام 1871، المصحوبة بالتنازل عن منطقتي الالزاس واللورين لألمانيا ، كرامة الدولة حتى كان لزاما استنهاض فرنسا وتوجيهها بأي ثمن. ولقد أدى الانقسام السياسي والديني بما في ذلك الاقليمي إلى حدة تفاقم أزمة الدولة مما قد يؤدي إلى تفكك الوحدة الوطنية. إن إنشاء الرابطة الفرنسية (AF) يستجيب فعليا لإرادة تجاوز هذه الصعوبات ، حتى تبدو وحدة الفرنسيين

الوطنية واضحة بعيدا عن العقلية الحزبية. كما أن الغزو الاخلاقي يتطابق مع هذا السياق تماما ؛ وذلك بتمجيد فرنسا على أنها أمة عظيمة ؛ وهذه دعاية تسير جنبا إلى جنب مع الاستعمار، في حين أن فونسان يربط بين عظمة الدولة والغزو الاخلاقي : {إن الدور الوحيد الذي يجدر بأمة عظيمة هو غزو يطال روح الشعوب الذين هم تحت حمايتنا } (BAF 66 : j 1988 , 22-21).

15. ويميز فونسان ضمنيا الامم {السفلى} التي تغزو بالقوة العسكرية فقط ،عن الامم الاخرى الاكثر{ تحضرا } وهي القادرة أيضا على الغزو الاخلاقي. وليست هذه فكرة جديدة ، بل هي موجودة ، على سبيل المثال ، في خطا بجول فيري السياسي عام 1891 (Jules Ferry) : " إن الجنس الاعلى لا يغزو من أجل اللذة ، أو بهدف استغلال الضعيف ، ولكن في الحقيقة من أجل تحضيره ورفع مستواه " (ذكره آجرون ، Ageron 1978 :66،). ويشير فيري إلى أن استعمار الاجناس {السفلى } من أجل اللذة أو استغلال الضعفاء ، لا ينطبق على الفرنسيين وهم " جنس راق " بامتياز لأنهم قادرون على جلب خيرات الحضارة للسكان. وهذا بالتأكيد يعني خطاب الاستعمار تحت ستار الحضارة.

16. ولا يكتفي { الغزو الاخلاقي } بشهادته على عظمة فرنسا ورفعة الفرنسيين، ولكنه مجال لفائدة أكثر احتمالا وهي : المشكلة الديموغرافية لفرنسا في القرن الناسع عشر. وتعتمد قوة الدولة عندئذ على العامل الديموغرافي مثل قوتها على المستوي السياسي والعسكري والاقتصادي نفسه ، مع إدراك أن الركود في عدد السكان هو أزمة خطيرة. وكان من المفروض تكثير عدد الفرنسيين للمحافظة على عظمة الدولة. وبالنسبة لفونسان ، فإن كندا ، وخصوصا كيبيك ، كانت تعطي مثالا جيدا للخصوبة ، ولم تكن هذه حالة فرنسا. إنه يقترح حلا آخر لاستغلاله : مادام

فرنسا تفتقد للأطفال ، فمن يمنعها من فرنسة أطفال رعاياها ومحمييها المستعمرين ؟ (بفتح الميم الثانية) . والمهمة ، بالتأكيد ، دقيقة وستكون طويلة. بالإضافة إلى القيام بها بعجلة وتصميم ومثابرة. فالمجهود الاول لهذه الاضافة الاخلاقية هو ، حقيقة ، في تدريس لغتنا .(BAF 26 , 16: , 1888).

17. وينوي فونسان ، مع اعتبار الوزن الديموغرافي لإنجلترة (350 مليون نسمة في إمبراطوريتها بما في ذلك الهند) ، ولكي لا يفقد معركة القوى ، ينوي في تحويل المستعمرين (بفتح الميم الثانية) إلى فرنسيين بواسطة الفرنسة. ومع ذلك ، فإن هؤلاء الفرنسيين المدعوين { بفرنسيي القلب } ليسوا مشابهين مطلقا لفرنسيي العاصمة من الناحية الادارية والقانونية ، ولا يتوقف فونسان عند وضعية هؤلاء { فرنسيي القلب } ، أي لهؤلاء { الفرنسيين بالتبني }.

18. ويقدم { الغزو الاخلاقي } مساهمة أخرى أكثر مباشرة في إدارة المستعمرات. ويلاحظ فونسان بأنه يقدم خدمة للمستعمرات بتثبيتها وإدامتها. وفي الفترة التي تفاقمت فيها الازمة الاقتصادية والتجارية في فرنسا وأوروبا بأسرها كذلك (BAF 15–16 , 1887 : 5) ، فإن التدخل العسكري في الجزائر على وجه الخصوص كلف كثيرا للحفاظ على الامن في المستعمرات . وكان السماح " بإعطاء الاهالي أفكارا فرنسية ممكنا، وتوجيههم بكل لطف نحو حب فرنسا "(BAF 37 ,1891 : 81). ويظهر هنا بكل وضوح الهدف الاخلاقي من تدريس الفرنسية : ترسيخ وطنية { فرنسية } لدى الاهالي بواسطة تدريس الفرنسية. وسيكون الاهالي أكثر ليونة ووداعة ، وهو ما يساعد الجمهورية على السيطرة عليهم إلى الابد، دون اللجوء للقوة العسكرية. ويجرؤ فونسان على مقارنة تكاليف تدريس اللغة مع تكاليف القوة العسكرية :

إن الحفاظ على أستاذ يكلف أقل من كلفة فرقة عسكرية ، كما أن نقل حقائب الكتب والأثاث الكلاسيكي أكثر سهولة وأقل كلفة من الصواريخ والمدافع (Foncin 1900 a : xxiii).

19. لم يتوقف فونسان ، من أجل ذلك ، وطيلة عمله بالرابطة الفرنسية ،عن الاشارة إلى تفوق { الغزو الاخلاقي }على الغزو العسكري. وإجمالا ، فإن الفوائد الكبرى لهذه السياسة تكمن في تبرير السيطرة الاستعمارية. بالإضافة إلى القوة العسكرية ، فإن الحفاظ على المستعمرات يتطلب طاعة عمياء من الرعايا باعتبارهم تحت السيطرة ، إذ بدون ذلك ، قد يتشظى النظام الاستعماري تحت صولة الانتفاضات. وفي هذا الصدد ، يسمح { الغزو الأخلاقي}، للمسيطَر عليهم ، وعلى المدى الطويل ، باستبطان علاقة السيطرة ، وتبرير السيطرة الاستعمارية كما يعيشونها. ويدور الغزو الاخلاقي على هذه الديناميكية ،وذلك إذا ما تم تشكيل المسيطَر عليهم على الطاعة العمياء.

20. يهدف { الغزو الاخلاقي } إلى قيمة أخرى بواسطة نشر اللغة الفرنسية ، فلا ينسى فونسان مظهر اللغة العاطفي ؛ ذلك ان التعلق باللغة عاطفيا يستطيع تقديم خدمة للتجارة. وهو يعترف بالارتباط الفعلي بين اللغة والتجارة ، ويعلن بأن منتجات بلد ما تباع جيدا طالما يتكلم السكان لغة دولة المنتجات الاصلية ، وذلك بسبب الحب الذي يبديه الشعب تجاه هذه الدولة (5). بالنسبة له " فحيثما تسمع اللغة الانجليزية ، تشترى المنتجات الانجليزية. وهكذا فاللغة سلاح ، وقوة مخيفة " (BAF 21– 23 : 18881, 22).

21. إن التعاطف من ناحية لغوية يحدِّد المشتريات ، كان على حضور الفرنسيين بالخارج أن يساهم في التوسع الاقتصادي للبلاد. وهم للأسف الشديد ، ليسوا بأعداد كثيرة في العاصمة ولا خارج فرنسا (6).ما دام

الرعايا الفرنسيون بالخارج لا يشكلون رهانا لتحسين الظروف الاقتصادية ، فإن الازمة تبدو أكثر خطورة ، وقادرة أن تمس مصير البلد نفسه :

إذا لم نصل إلى تعديل هذا الوضع ، فإني أقول بأنه خطير ومقلق بالنسبة للمستقبل. وهو يعني أن تجارة التصدير في هذا الوضع ، والمحافظة عليها بصعوبة بالغة في المرتبة الثانية ، مهددة بالوقوع بسرعة في المرتبة السادسة ، بسبب أن الحرب الاقتصادية ستقود كل شعب إلى فقدان زبائنه قريبا الا رعاياه وأصدقاءه. (BAF 26 1888 : 169) (7).

22. بما إن الاحتفاظ بمرتبة الدولة يعتبر أساسيا من أجل عظمة الدولة ، فيجب ،مع متابعة منطق الرأسمالية ، البحث عن منافذ جديدة خارج فرنسا ، وهو ما يسمح بتبرير استعمار ما وراء البحار ، حتى وإن كانت القوة الشرائية للمستعمرين (بفتح الميم الثانية) غير كبيرة (8).

23. لماذا يصرُّ فونسان على إعادة هذا الخطاب الاقتصادي–اللغوي ؟ إن قوله يتوجه ، في أغلب الحالات ، إلى أعضاء الرابطة الفرنسية (AF) و/ أو إلى فرنسيين آخرين قادرين على الانتساب لهذه الرابطة ، ومن هنا كان هذا الصوت الدعائي. وعندما تطبق الدعاية في إطار النشاطات الوطنية للرابطة الفرنسية ، فهي غير موجهة إلى الاعضاء وهواة اللغة فقط ، بل إلى الصناعيين القادرين على المساندة لأعمال النشر مادياً. وعلى الخطاب أن يلمس وطنية الجمهور لدرجة تجعله ينظم إلى الجمعية. ومن هنا تبدو قيمة المظهر الاقتصادي للغة في هذه محاججته :

الرابطة الفرنسية (AF) هو حليفكم الطبيعي ؛ ونشر اللغة الفرنسية هو مفتاح الاسواق الخارجية. لنوحد إذن صفوفنا (...) لأن كل تلاميذنا سيصبحون يوما ما زبائنكم ، وستستعيدون فيما بعد أرباحكم الواسعة أكثر مما أنفقتموه من أجل مدارسنا. (BAF 26 , 1888 : 173).

24. إن الامين العام يبحث عن إقناع الصناعيين بأن الرابطة الفرنسية تعمل من أجلهم وبنجاح ، وهو ما يدل عليه ، على سبيل المثال ، التكاثر الظاهر في عدد أعضائها. فلقد تضاعف مع نهاية السنة تقريبا ؛ وأنتقل من 5649 في سنة 1884 إلى 11505 في سنة 1885.

3. الجزائر مختبر لتطبيق الامبريالية اللغوية : فشل التدريس لدى الاهالي

25. بالنسبة لفونسان ، سبق وجودَ " الغزو الاخلاقي " في الجزائر حالة فشل تدريس اللغة الفرنسية للأهالي (باركو 2000 ، Barko) ، و بالتالي مشروع سياسة لغوية أخرى موجهة بطريقة أولوية لمنطقة القبائل. ولقد استعاد فونسان الأخطاء المرتكبة من الحكومات المتعاقبة في تعليم الاهالي.

26. وفي الحقيقة ، فقد كان هناك تعليم عربي–اسلامي قبل الغزو(9) ، حتى وإن كان قروأوسطيا في نظر فونسان. وقد رسم حالته من التعليم الابتدائي إلى العالي (10). ويعترف بأن فرنسا " تركته ينقرض كليا " (Foncin1883 : 1). وذلك لأنه كان يمثل بالنسبة للسلطات الفرنسية مكانا حيويا للتعصب ، حيث يبرز فيه التمرد ضد المعمرين. و لهذا السبب، لم تكن السلطات والمعمرون يحبذون تعليم الاهالي كذلك.

27. ويبين فونسان أن نقص المصادر المالية هو خطأ ثان ارتكبته الحكومة المركزية. ولقد تم استعادة الخطاب المتعلق بالأزمة المالية في النقاشات الجارية حول موضوع الاستعمار في تلك الفترة ، بالإضافة إلى أن العاصمة تعاني من الركود الاقتصادي. ومع ذلك ، فيجب الانتباه إلى صدق هذا الخطاب ، حيث تشير دراسة تاريخية حديثة أن تكلفة الغزو الاستعماري زهيدة (ايتميدا ، Etemda 2001 : 741). ويمكن أن يكون تفسير ذلك من حيث ميزانية محصورة قادرة بسهولة تبرير فشل تعليم الاهالي ، دون الحاجة إلى الاشارة لأسباب أخرى.

28. وتكمن الملاحظة الثالثة في تشرذم الكفاءات في مجال التعليم. ويتسابق مختلف الفاعلين من مدنيين وعسكريين ورجال دين في حقل التعليم ، ولكن دون أي انسجام واقعي بينهم. وينقصهم " مفصل مركزي فعال يمتلك المبادرة ويظهرها ، ويجمع الارادات ، ويدرس وينشر الطرق المثلى ، ويشجع تكوين الاساتذة ، ويوزع بالتساوي المساعدات المالية " (Foncin 1900a : xxii).

29. كما يساند المعمرون " ليس هناك داع للاهتمام بالعرب الا إن كان لسحقهم أو على الاقل لرميهم في الصحراء " (Foncin 1883 : 4). وهذا الرأي يترافق مع القمع للأهالي ، بالإضافة إلى أن المعمرين يصعب عليهم ردع التمردات. في حين أن آخرين يعترضون بأن تعليمهم يعتبر وضعا " لسلاح آخر إضافي في أيديهم " (Foncin 1883 : 5).وتترجم هذه المعارضة القوية إلى القناعة أن الاهالي غير مؤهلين للتعليم (المصدر نفسه). بالإضافة إلى حجج أمنية أخرى تقود المعمرين إلى الاعتراض بقوة على تعليم الاهالي.

30. يحرص فونسان كذلك على الاعتراف بالأخطاء في الممارسات التربوية (البيداغوجية) المستعملة مع الاهالي. ويبرز من ذلك أن التعليم لا يتصل بحياتهم العملية. وإن لشهادة الشيوخ مغزاها : " أكد لي الشيوخ ، الذين كان لي فرصة رؤيتهم ، أن كل الاطفال سيذهبون إلى المدرسة شريطة أن يكون التعليم عمليا جدا وفائدته حالية " (Foncin 1883 : 22).

31. لم يكن رؤساء الاهالي يجدون التعليم مفيدا تماما على الطريقة الفرنسية القائمة منهجيا على " التربية الاومية ". ويحدد فونسان أن التربية المسماة " بالتربية الاومية " ترجع إلى اعتبار الأطفال العرب تلاميذ عاديين وإلى تعليمهم اللغة الفرنسية دون الاهتمام بجهلهم بها ؛ (...) ونسينا أن أمهاتهم تحدثهم بالعربية أو القبائلية وليس بالفرنسية "(A4F 37 18911 73).

ويقوم تدريس الفرنسية للأهالي كما لو كانوا أطفالا فرنسيين في محيط ناطق بالفرنسية وهم واقعيا في وسط لا يتكلمون فيه هذه اللغة في حياتهم اليومية. (11). بالنسبة لتدريس الفرنسية بالعاصمة ، لا أحد يتساءل عن أهداف تعلم اللغة من وجهة نظر "الفائدة الحالية "، بما في ذلك التدريس المهني. إن اكتساب الفرنسية كلغة أم أمر طبيعي حتى وإن كان التعليم القومي ، من الناحية السياسية ، يهدف إلى التكوين الوطني للمواطن. أما في المستعمرات حيث البيئة اللغوية بالفرنسية غير موجودة ، " فالفائدة الحالية " تمثل ورقة رابحة لمساندة النظام الدراسي.

32. وتكمن الصعوبة في النشاطات التربوية (البيداغوجية) كذلك. وعندما كان كثير من المدارس على عاتق المبشرين الكاثوليك ماديا ، فقد كانوا يريدون ترسيخ القيم المسيحية من خلال تعلم اللغة : " غالبية الواجبات المدرسية في الاملاء مأخوذة حصريا تقريبا من الكتاب المقدس أو مأخوذة من مؤلفات تظهر السمة العقدية في كل سطر منها " (Foncin 1883 : 23). في حين أن الاسلام كان الوطن الوحيد للمرجعيات الايديولوجية لعامة الجزائريين المسلمين " (ستورا، Stora 1991 : 41). وقد استطاع هذا التوجه التربوي أن يقوي عداوة الاباء.

33. وهناك عناصر سلبية كثيرة لا تسهل انطلاقة التعليم للأهالي. وأعاد فونسان إذا توجيه السياسة اللغوية لصالح القبائليين ، وهم الاهالي الاقل عددا من العرب.

34. إن فشل تدريس الاهالي ، وخصوصا العرب منهم ، دعا إلى التفكير في استراتيجية أخرى ، "ويبدو من اعتراف الجميع أن تدريس اللغة الفرنسية للبربر أسهل بكثير من تدريسها للعرب. ولتكن البداية بالبربر " (BAF 37, 74 : 1891).

35. ويستند هذا التوجيه ، من ناحية ، على مفهوم الفرنسيين عن القبائليين. ويخلص فونسان إلى أن " القبائليين غير مقاومين لحضارتنا قط " (Foncin 1883 : 17) ، ولا معادين للتعليم : "لدينا ، أمام أبوابنا ، وعلى جبال أفريقيا الشمالية ، منطقة بربرية بأكملها من الفلاحين الصابرين، المثابرين، الاذكياء، والاكثر قربا لحضارتنا الغربية من بعض قرويي فرنسا والراغبين كثيرا في التحدث بلغتنا "(BAF 26 , 1888 : 167).
36. لم تكن المقارنة بين القبائليين و" بعض قرويي فرنسا " من غير سبب. وتَظْهِرُ، في الواقع هنا ، إحدى سمات الايديولوجية الامبريالية اللغوية. ويقارن فونسان القبائليين مع بعض القرويين البروتانيين والباسك أو سكان المقاطعات ، وذلك بكل بساطة ، بسبب طبائعهم " قساة ، مثابرين ، أذكياء ولكنهم ظلوا أنصاف همج " (: 1891 37 82BAF). وهو يهتم على وجه الخصوص بالوضع اللغوي للقبائليين مقارنة بمتكلمي اللهجات المحلية الفرنسية. وللبربرية ، اللغة أم للقبائليين ،بعض سمات اللغات المحلية بفرنسا.
37. يلاحظ فونسان أولا أن اللغة البربرية ليس لها أبجدية خاصة بها ، خلافا للغة الاهالي الاخرى وهي العربية. ومن هنا جاءت إدانته على غياب تراث أدبي لها (12). إن غياب الثراء الادبي يقلل بالضرورة من قيمتها في علاقتها الامة. ولا يتوقف فونسان عن الاشارة إلى الرباط الحتمي بين اللغة والشعب : " إن امتياز لغة ما يقاس بامتياز الشعب التي هي روحه وصوته " (Foncin 1900a : xxxii).
38. هناك جنس " متميز " بالنسبة لأجناس أخرى " سفلى " وهناك بالضرورة لغة " متميزة " إلى جانب لغات أخرى " سفلى " : " من قيمة هذا الشعب ،قيمة لغته " (Foncin 1900a : viii).وتقدر قيمة اللغة تبعا لقيمة الامة

، والادب هو المكون الاساس لها. وتقل قيمة أمة بدون أدب ، وكذا لغتها. مرتبة اللغات تتماشى مع مرتبة الامم.

39. يضع فونسان في اعتباره ثانيا الدليل الديموغرافي للغة. وفي هذا الصدد ، فالبربرية فقدت قيمتها ، مثل لغات فرنسا المحلية ، بالنسبة لعلاقتهما مع الفرنسية والعربية. إذا كانت اللغة يتكلمها سكان مهمون ، فلا يمكن استبدالها بسهولة بلغة أخرى ، في حين أن لغة قليلة الاهمية يمكن إزالتها لصالح لغة أخرى. ومن هذه الناحية، تعد اللغة العربية حاليا ، من الصعوبة بمكان إزالتها : " العربية محيِّرة جدا. (...) وهي مستعملة في تونس والمغرب ، والشرق كله ، وهي بلدان ترتبط الجزائر بعلاقات قوية معها : هناك مصلحة تجارية جدية كثيرا يعرفها الاهالي. ومن الطبيعي والشرعي إذاً أن كل أطفال العائلات المعنية يتلقون دروسا في العربية. فهل من سبب للذهاب بعيدا وإعطاء جزء من التدريس بالعربية في أوساط الاهالي ؟ "(Foncin 1883 : 44). ويساند القيمة التجارية للغة هنا سكان عروبيو اللغة مهمون ، ومنتشرون في بلدان متعددة ، وهو ما يبرر عدم تركها لصالح لغة أخرى.

40. تشترك اللغات المحلية مع اللغة البربرية في بعض سماتها : غياب الحروف الابجدية الخاصة بها ، وأدب مكتوب حاليا ومطبوع ،وسكان قليلو العدد أيضا. وستستبدل هذه اللغات إذاً باللغة العظيمة الحضارية وهي الفرنسية ، اللغة القومية.

41. أما اللغات المحلية ، فإن فونسان يدعوها : " بالبقع السوداء " :

دون الخروج من فرنسا ، فأنا الاحظ بعض البقع السوداء : الفلامنكو في الشمال ؛ البروتانية في بروتانيا ؛ الباسكية والكتالانية عند حدود اسبانيا ؛ لهجات أخرى مشتقة من اللغة الاوكسيتانية في الجنوب. (...) وستنمحي البقع

السوداء تدريجيا مع تقدم التعليم الابتدائي ، ومن الممكن استباق الزمن حتى تكون الفرنسية مفهومة لدى الفرنسيين ومتحدثا بها. (2: Foncin1885).

42. ثم يشير ضمنيا لوجود " بقع سوداء " أخرى خارج فرنسا. والمقصود بذلك " البقع السوداء " على خارطة فرنسا ، والتي يجب إزالتها بواسطة التعليم شيئا فشيئا ، أي تدريجيا. إن مصير البربرية يجب أن يسير في طريق مشابه لما سبق:

إن البربرية تنمحي تدريجيا مثلما حدث عندنا للغات الفلامنكية ، والباسكية والبروتانية السفلى والبروفنسالية. ما الفائدة من منعها من الاندثار ؟ لم يعد لها حروف أبجدية خاصة بها ؛ وغير مكتوبة(رغم إعتقاد القرار ؟!) . وعندما تموت ، فلن يستعمل القبائليون الا اللغة الفرنسية؛ بما في ذلك سكان جبال الاوراس ؛ وسيدركون عندئذ بكل سهولة أنهم لم يفقدوا شيئا في هذا البديل. (44 : 1883 Foncin).

43. وتسعى السياسة اللغوية باسم " الغزو الاخلاقي " لاستبدال لغة القبائليين بلغة المستعمرين كليا. ويأتي بالتأكيد التغيير للغة الاهالي بلغة السادة في سيرورة الاستعمار في المرحلة الاخيرة ، فإلى جانب المعايير القمعية ، من المفروض وجود طاعة عمياء من جانب المستعمرين (بفتح الميم الثانية). أما فيما يتعلق بأصحاب اللهجات ، فلهم أسباب حقيقية ليشعروا وكأنهم فرنسيون بالكامل، وهو ما لم يحصل بالتأكيد في حالة القبائليين.

4. الخلاصة :

44. قام فونسان عمليا بتطبيق الامبريالية اللغوية باسم " الغزو الاخلاقي " وذلك في سياق الاستعمار ، وخصوصا عند القبائليين. وتُبْرِزُ المحاججة ،باستبدال البربرية اللغة الام بلغة أخرى وهي الفرنسية ، منطقَ الفرنسةِ لأصحاب اللهجة (البربر) .ولقد لاقت السياسة اللغوية بالداخل نجاحا، مع الاخذ في الاعتبار نشر

اللغة الفرنسية على حساب اللغات المحلية ، حتى وإن أخذ ذلك سنوات عديدة لدعم فرنسة مطلقة في المناطق والاقاليم.

45. ويبقى معرفة ما إذا كان القبائليون ، وهم أصحاب الاولوية في سياسة " الغزو الاخلاقي " قبلوا بالتعليم الاستعماري. وبهذا الصدد ، فإن التقرير عن الوضع اللغوي في الجزائر يبدو رمزيا : وهو يشير فقط إلى أن نسبة التمدرس لدى الاهالي تصل إلى 3% في عام 1900 ، وهو ما يمثل على الاقل ثلاث سنوات من العمل في " فرنسا الجديدة " (FONCIN 1900a : 132). ومن الممكن أن نتساءل عندئذ مع أستاذ بالمدرسة الاستعمارية ،عما إذا لم تكن الجزائر " المكانالحيوي لكل الاخطاء التي باستطاعة سياسة الدمج أن تكدسها " (ذكره آجرون 1978 : 1978 : 193)

ملاحظات المترجم

*- الجمهورية الفرنسية : نظام سياسي في فرنسا مر بخمس فترات :
الجمهورية الاولى من 1789 إلى 1804؛ الجمهورية الثانية من 1848 إلى 1854؛الجمهورية الثالثة من 1870 إلى 1940؛ الجمهورية الرابعة 1944 إلى 1958 ؛ الجمهورية الخامسة من 1958 إلى الان.

**. MEILLET Antoine : (1866- 1936) لغوي فرنسي. أستاذ بمدرسة الدراسات العليا ، ودرس العديد من اللغات الهندو-اوروبية بما في ذلك اللغة السلافية (Le Slave ، 1914) والارمنية (d'une . .Esquisse histoire comparée de l'arménien classique, 1903) ، والفارسية (Grammaire du vieux perse , 1915 ، واللاتينية واليونانية (Traité de grammaire comparée des langues classiques , 1924. ،

واللغات الجرمانية (Caractères généraux des langues germaniques). وكان نشر ، منذ 1903 ، مقدمة في دراسة مقارنة للغات الهندو-أوروبية تجت عنوان : (Introduction à l'étude comparative des langues indo-européennes. واشترك في تأليف القاموس الاشتقاقي الكبير للغة اللاتينية مع Ernout (Dictionnaire étymologique de la langue latine , واشترك مع M. Cohen في كتابة (لغات العالم) (Les Langues du monde , 1924.وهو كاتب من أشهر اللغويين الفرنسيين وتلاميذه كثيرون.

الهوامش :

1. " من كل المناطق التي تسيطر على الانتباه ، يبدو لنا انتماء المكان الاول لحوض المتوسط. وينبغي أن يطبق عملنا هنا أولا وقبل كل شيء ، لكي يتوسع تدريجيا ويطال مناطق اخرى أكثر بعدا" (BAF111884 :8). الاقتباسات المأخوذة من مجلة الرابطة الفرنسية (Bulletin de l'Alliance Française) محددة بالنصوص الموقعة من فونسان نفسه.
2. انبثقت وجهة النظر هذه من التفكر في علم اللغة التاريخي للقرن التاسع عشر. بالنسبة لشليشر (Schleicher) ، على سبيل المثال ، اللغات مصنفة على ثلاث فئات : لغة عازلة ، لغة لاصقة ولغة منحنية. ويزعم هذا اللغوي الالماني أن الاخيرة هي الوحيدة التي لها الحق في تمثيل العقل بصورة حقيقية ، وهو ما يفترض ترتيب اللغات (دوكرو، 1984 : 26. Ducrot).
3. ونعني بذلك " البحث عن عناصر أو اتجاهات (صوتية ، لغوية ، نحوية أو مفردات(phonétiques , phonologiques , syntaxiques ou lexicales) ، على أنها مشتركة بين كل اللغات الانسانية والطبيعية " (مونان 1974 : 331Mounin).

4. وقد أرجعه ليون (Léon) لتقرير المفتش العام لعام 1855، بصدد التمثيل غير الكافي للأهالي بين تلاميذ مدرسة الجزائر (ليون 1991 : 20). وهناك بحث آخر يشير إلى أنه إنطلاقا من 1892 قد تم أخذه من جديد في الخطابات السياسية (مارتان 1988 : 105 . Martin).
5. فرضيته المتعلقة باللغة والتجارة موضحة بالأمثلة في مدينة أرجنتينية بياتا (Piata) : ما يربط مدينة بوردو الفرنسية تجاريا بهذه المدينة ، هو اللغة المتحدث بها فيها، وتشترى المنتوجات الفرنسية في كل مكان يتحدث فيه بالفرنسية "(فونسان 1885: 15).
6. " لن نستطيع أن نعتمد أبدا ، نحن الفرنسيين ، على هذا الشعور الوطني للحصول على أفضلية منتجاتنا المصدرة ، لأن قليلا من الفرنسيين مقيمون بالخارج، 500.000 نسمة في الاكثر " (168 : 18881 BAF 26).
7. تتماشى " المرتبة الثانية " مع رقم الاعمال في مجال التجارة الخارجية، و" المرتبة السادسة " مع ديموغرافية البلد.
8. " العرب ، والقبائليون (الامازيغ) ، الموريسكيون ، المدغشقريون والسود ،وهم كما يقال قلة من الزبائن (زبونة ضعيفة) ! " (فونسان ، Foncin 1900a : xvii).
9. " كان التعليم منتشرا لدى أهالي الجزائر، قبل الغزو الفرنسي.
10. يذكرنا تنظيم التعليم الاسلامي كله كثيرا بما يقابله في فرنسا في العصور الوسطى (...) ويذكرنا المرابطون بالرهبان المقاتلين في القرن العاشر وفرسان الصوامع، (...) وكانت المدرسة الابتدائية تحمل اسم ميسيدو المكتب(mecidou de mekteb) وكانوا يقرأون ويتلون القرآن (...) وهناك تعليم أكثر رقياً (...) وهو ما يمكن تسميته بالتعليم الثانوي ، كان يعطى ، إن وجدت طبقة وسطى في البلدان الاسلامية ، في المدرسة من المدرسين. وكان الشبان يتعلمون فيها النحو وتفسير القرآن. (...) وهناك

مبان حقيقية اخرى للتعليم العالي موجودة في غالبية مساجد المدن الكبرى. وكان يدرَّسُ بها الشريعة، والفقه والسنة ، وأحيانا مبادئ التاريخ والادب والحساب والفلك والجبر " (فونسان 1883 : 9-10).

11. وهذا لا يمنع من ملاحظة أن نشر الفرنسية العام كان على جدول الاعمال في العاصمة ،وفي المناطق التي يتحدث فيها بلغات اخرى أكثر من الفرنسية تحديدا، كما هو الحال في بروتانيا وبلاد الباسك.

12. والمقصود بذلك هنا ، الادب المكتوب، وهو غزير في الادب الفرنسي. ويقدر فونسان قيمة الأدب كثيرا فيما يتعلق باللغة : " عمق اللغة يكمن في ثرائها الادبي ،وهي ليست الا تألقا للروح القومية " (فونسان، Foncin 1900a : xiv).

المراجع :

Bulletin de l'Alliance Française (BAF) , n. (1884). N.52 (1894).

Ageron, Charles-Robert (1978) : France coloniale ou parti colonial ? Paris, Presses Universitaires de France.

Barco, Ivan (2000) << L'Alliance Française : les années Foncin (1993-1914), Contexte , naissance, mutations >>, in Vigner 2000, 90-115.

Broc, Numa (1976) «Patriotisme, régionalisme et géographie : Pierre Foncin (1841-1916) ». L'Information Historique, n.38. 30-33 .

Bruezière, Maurice (1984) : L'Alliance Française : Histoire d'une institution. Paris, Hachette.

Ducrot, Oswald, Todorov, Tzvetan (1984) : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Paris, Edition du Seuil.

Etemda, Bouda (2000) : « (colonisation) Une bonne affaire' ? » , Alternatives Economiques, n. 192, 74-77.

Foncin, Pierre (1883) : « L'instruction des indigènes en France », Revue Internationale de l'enseignement, 15/ 08/ 1883, 3-47.
Foncin, Pierre (1884a) : L'Alliance Française et L'enseignement de la langue nationale en Tunisie et en Algérie (conférence faite à la Société Historique « cercle Saint-Simonj, le 1er mars 1884), Siège de l'Alliance Française.
Foncin, Pierre (1884b) : « L'Alliance, Française, conférence faite au cercle Saint-Simon, le 18 décembre » , Revue Scientifique, 27 décembre 1884, 1-19.
Foncin, Pierre (1885) : Conférence faite à Bordeaux le 1er décembre 1884, à l'Ecole professionnelle, Bordeaux, Imprimerie G. Gounouihou.
Foncin, Pierre (1889) : Alliance Française, Paris, Imprimerie nationale.
Foncin, Pierre (1891) : « La France extérieure (1891) », Annales de Géograpgie,1-8.
Foncin, Pierre (1900a) : Alliance Française, La langue Française dans le monde, exposition universelle de 1900. Paris, Alliance Française.
Foncin, Pierre (1900) « de l'Enseignement aux Colonies », LAnnée Coloniale, deuxième année, 3-15.
Hardy, Georges (1917) : Une conquète morale : l'enseignement en A.O.F. Paris, Armand Colin.
Léon, Antoine (1991) : Colonisation, enseignement et éducation ; étude historique comparative. Paris, L'Harmattan.
Martin, Jean (1988) : Lexique de la colonisation française. Dalloz.
Meillet. Antoine (1928) : Les Langues dans l'Europe nouvelle. Paris. Payot.
Miura Nobutaka, Kasuya, Keisuke, Griolet Pascal éds. (à paraitre) : Les imperialisms linguistiques. Paris, Presses Universitaires. Paris, Presses 1 NALCO.

Mounin, Georges (1974) : Dictionnaire de la linguistique. Paris, Presses Universitaires de France.
Philipson, Robert (1992) : Linguistic Imperialism. Oxford, Oxford University Press.
Stora, Benjamin (1991) : Histoire de l'Algérie colonial 1830-1954. Paris. La Découverte.
Tanaka, Katsuhiko(à paraitre) : « La théorie linguistique de l'impérialisme linguistique supposant la séparation entre la langue et la nation »,in Miura-Kasuya – Grioletéds.
Vigner, Gérard éd. (2000) : L'enseignement et la diffusion du français dans l'empire colonial français. 1815-1962. Actes de la journée d'étude organisée par la Simples à Saint-Cloud le 11 décembre 1998. Documents pour l'histoire du français langue étrangère ou seconde, 25. Paris, SIHFLES.